عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
٥ شارع المريوطية, الهرم, مصر - بريد الكترونى : info@dar-ein.com
تليفون : ٣٣٨٧١٦٩٣- موبايل : ٠١١١٥٩٤٨٨٨٤

لثلج والموت في بلاد الشام ومصر – بقلم الدكتور عمرو عبد العزيز منير

شرت في يوليو 28, 2014 عن طريق دار عين - قسم تاريخ دكتور عمرو منير موضوعات عامة

كتست عدة مدن في بلاد الشام ، باللون الأبيض جراء تساقط الثلوج عليها بكثافة لترسم الثلوج لوحاتها بفرشاتها الساحرة ، تسكب الألوان البديعة ، وتنقش التفاصيل ، تصور الأحداث ، ،تخط الذكريات فتجسد لوحة ناطقة بتراث الشام المفعم بالحياة ليطل علينا مبكرا هذا الشتاء ولكن برائحة البارود، ولون الدم، وبطعم الرعب واصطكاك الأعضاء بردا ويأسا، من شبح الموت لسوري في الأحياء المهجورة. وفي لبنان وفلسطين والأردن، لتصبح بلاد الشام بلاد الثلج واللجوء والخيام، التي لم تعد "احتكارا فلسطينيا !" ويمر الزمان وتمضى الأيام ولكن تبقى قصة لج الشام ماثلة في الأذهان التي يرويها المؤرخ حجازي عبد المنعم سليمان في دراسته الرصينة "الثلج والثلاجون في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي" الصادرة عن الجمعية المصرية لدراسات التاريخية بالقاهرة. إذ يبعث ملامح الماضي حية في خيالنا فنجوب بين دروبه وأزقته فتطالعنا الأشعار التي نظمت في الثلج بعض الدلالات التاريخية يتصدرها ربط بعض الشعراء بين وفر الثلج للملوك وبين اكتمال عظمتهم ورفاهية ملكهم، علاوة على إشارة بعضهم إلى استخدام الثلج صيفاً بمزجه بالعساس وفي الشتاء بمزجه بالعسل، خاصة أن بلاد الشام يكسوها الثلج سيفاً وشتاءً ، إضافة إلى دلالات أخرى يُعبر أغلبها عن خلط الماء بالثلج لتبريده وهو الاستخدام الأكثر شيوعاً للثلج على مختلف العصور، كما تُلحظ إشارة بعض الشعراء إلى دلالات تاريخية مهمة للغاية؛ مثل الإشارة إلى مكان وجود الثلج في أعالي جبل الثلج أو الشيخ كناية إلى الرأس المكلل بالثلج، كما يكلل الشيب رأس الإنسان ، والواقع بين سوريا ولبنان .

لم يفت الأدباء الذين رصدوا لنا أوضاع المهمشين مثل أخبار الحمقى والمغفلين الإشارة إلى تصورهم للثلج وإلى نوادرهم وملحهم فيه، وهذا على وجه التحديد يُعد رصداً واقعياً لرؤية العامة البسطاء للثلج وأهميته وجدواه وخواصه ومدى معرفتهم به وما إلى ذلك من قضايا مماثلة، وبخاصة أن الأدب سواء كان شعراً أم نثراً يمثل وجدان المجتمع كما أنه انعكاس له، علاوة على أنه لم كتب كي يكون مصدراً تاريخياً وبالتالي درجة المصداقية التي يعول عليها حينما نستقي عن الأدب مادة تخدم بعض الجوانب التاريخية التي أهملتها المصادر التاريخية أو تغاضت عنها ترفعاً أو عفوياً.

شار حجازي إلى انتباه المؤرخين لآلية حفظ الثلج وتخزينه كمهمة تحتاج إلى خبراء للحفاظ عليه حتى يصل إلى قلعة الجبل بمصر حيث يُخزن في صهاريج خاصة مُعدة لذلك "...ويُجهز بكل قلة...ثلاج خبير بحمله ومداراته"، بيد أن مهمة الثلاجين كانت تبدأ منذ وقت مبكر، حينما يصعدون إلى قمم جبل الثلج – أو الشيخ – ويختارون قطعة الثلج التي تتحمل طول الطريق دون أن ذوب "...ولا يصل متوفراً إلا إذا أُخذ من الثلج المجلد... "، وفي هذه الحالة فإنهم يقومون باختيار قطع معينة يعرفونها جيداً ثم يقومون بدكها أو كبسها لمنع الهواء من الوصول إليها "...وأُجيد كبسه واحترز عليه من الهواء فإنه أسرع إذابة له من الماء... ".

شير الدراسة إلى أن المراكب التي اعتادت نقل الثلج إلى مصر كانت مجهزة بصهاريج لحفظه على الطريقة ذاتها التي يُخزن بها في القلعة أو غيرها، ويُستشف من إلغاء السلطان المملوكي لاجين لمنصوري (1294-1298م) لجلب الثلج على السفن بأنه كان عملاً مضنياً وشاقاً بقوله: "...أنا كنت نائب الشام وأعلمما يُقاسي الناس في وسقه من المشقة... "، ولأن دمشق كانت تُشرف على لثلج المجلوب إلى مصر براً فإننا لا نفهم لِمَ لمْ يبطل جلب الثلج الذي تُشرف عليه دمشق، بدلاً من إبطال جلب الثلج الذي يأتي بحراً والبعيد عن حدود نيابته وسلطانه، أو أن يقوم بإلغاء الجلب لبري والبحري معاً، وفي هذه الحالة فإنه قد يُفهم أن الثلج البري لم يكن يُمثل تلك الصعوبة التي يُمثلها خلال جلبه بحراً ربما بسبب مشاكل البحر الأمنية في ظل الصراع مع القوى الأوربية في لعصر الأول من دولة المماليك، علاوة على أن إلغاء الجلب البحري وإبقاء الجلب يؤكد أن حكامنا لم يكن لديهم نية التخلي عن أحد أوجه ترفيههم بأي صورة.

ينما لم نقف على كيفية حفظه وتخزينه ريثما تصل الجمال الحاملة له إلى مصر عن طريق البر، بخلاف أن قطع الثلج الكبيرة المجلدة كانت تُغلف جيداً بالقش والخيش خشية تسرب الهواء إليها تعمل على إذابتها، بيد أن طول المسافة بين مناطق جلب الثلج في أعالي جبل الثلج وبين مصر أو بلاد الحجاز من ناحية أخرى، وتعرض النقلات لدرجة حرارة مرتفعة خلال شهور الصيف في صر وإقليم الحجاز تعكس وجود تقنية متطورة لحفظ الثلج أغفلتها كتب التاريخ .

لكن يمكن تقديم تصور لها في ضوء إشارات من مصادر أخرى؛ فقد أشار الجزري إلى وجود خزانات للثلج في بلدة قارا الواقعة شمال إقليم الحجاز كانت تمد السلاطين بالثلوج التي يستهلكونها خلال مواسم الحج، ولا شك في أن هجن الثلج القادمة من دمشق هي التي كانت تمد خزانات قارا بالثلج قبيل ذلك، كما يُفهم من إشارة غامضة عثور المماليك البحرية – الذين فروا من وجه عز لدين أيبك عقب مقتل أقطاي – على مدينة غامضة أطلقوا عليها المدينة الخضراء وحددوا موقعها بأنها تقع في تيه بني إسرائيل، أي في المنطقة الحدودية الفاصلة بين حدود مصر وبلاد الشام قريباً، والشاهد من الرواية أن هؤلاء المماليك عثروا مصادفة على خزان للمياه بتلك المدينة شديدة الحرارة وقد وصفوه بأنه أبرد من الثلج، وفي ضوء هذه الإشارات مع توقع وجود تقنية متطورة حفظت كميات الثلج المنقولة طوال ذلك الطريق الطويل شديد الحرارة أن تكون تلك التقنية ممثلة في توفير السلاطين خزانات لحفظ الثلج في محطات معينة على طول الطريق، والمعروف أيضاً ن الملح كان يُستخدم في حفظ المواد الغذائية وبخاصة السمك المملح ولا يستبعد أن يكون قد تم استخدامه في حفظ الثلج للوصول به في كميات مناسبة إلى مصر وغيرها.

يستعرض الباحث طرق تخزين الثلج في بلاد الشام لأجل الاستهلاك المحلي خاصة أنه لم يمثل مشكلة، وبخاصة أنها بلاد الثلج ولا تحتاج إلى نقله لمسافات بعيدة، وبالرغم من ذلك فقد خُزن الثلج ي بلاد الشام ولكن لاستخدامه في فصل الصيف، حيث تخصص خبراء من الثلاجين ممن ينتمون إلى قرية حلبون التابعة لدمشق في دك الثلج في مغارات طبيعية ولا يبدأ بيعه إلا في شهر أيار/ ـايو.

ما في لبنان فقد وُجدت لهذه الغاية مباني متينة مقببة ومطمورة جزئياً في منحدرات الجبال، يقوم العمال بدك الثلج عبر فتحات في سقف هذه المباني، وعندما تمتلئ تلك المخازن فإنهم يُغلقون لفتحة ولا تُفتح قبل شهر أيار، ويُلحظ أن تلك المغارات كانت في أعالي الجبال حيث تنخفض درجة الحرارة الأمر الذي يساعد على نجاح عملية التخزين .

ما في مصر فُيشار إلى أنه كان بمجرد وصول الثلج من بولاق إلى القلعة على ظهور البغال للواصل بحراً وعلى ظهور الجمال للواصل براً فإنه "…يُخزن في صهريج…" أُعد له خصيصاً، ؤكد المؤرخ العُمري بأنه "… إذا سُفّرت (نقلات الثلج) سُفّر معها من يتدارّكُها من ثلاجين لمداراتها.."، وهذا يعني من جهة أخرى أن ثمة من تخصص في تلك المهنة من الثلاجين، وقد عمل تلك الحرفة بعض أهل دمشق وبخاصة في الصيف وذلك بقطع الثلج وجلبه على ظهور الحمير إلى دمشق، كما ألمحت بعض المصادر إلى امتهان أصحاب مهنة الفقاقيع جلب الثلج سواء لأجل حرفتهم لتبريد الفقاقيع أو لبيعه خاماً في دمشق، ناهيك عن بحث المكارية عنه في الجبال في مواسم شحه وبيعهم إياه في مدينة دمشق، كما كان الثلج يجلب بالطرق ذاتها إلى مدينة حماة التي لم كن يسقط بها الثلج، فكان يجلب إليها من المدن المجاورة لها "…ولا يبقى بها الثلج إلى الصيف كما يبقى في بقية الشام وإنما يُجلب إليها مما يجاورها وحولها… ".

شير الدراسة إلى أنه لم يكن كل من حمل لقب الثلاج عاملاً بالثلج، بدليل ما رواه ابن الثلاج عن جده بأنه حمل اسم الثلاج بالرغم من أنه لم يبع الثلج يوماً، بيد أن المصادر ضنت بما يكشف لستار ويزيحه عن أرباب هذه المهنة بخلاف إشارات عامة ضمناها حديثنا السابق، ويُرجح الباحث أن يكون أغلبهم شامي الجنسية باعتبار بلاد الشام موطناً للثلج ومن ثم الثلاجين بعكس مصر، يؤيد ذلك عودة من أشرف على نقل الثلج إلى مصر- سواء بحراً أم براً – فور انتهاء مهمتهم إلى الشام .

لكن لم نقف لهم على تنظيم ما، وما إذا كان لهم رئيس أو شيخ، بخلاف أنهم ارتبطوا بديوان الإنشاء على اعتبار صدور المراسيم التي حددت أوقات عملهم عنه، وقد نظمت تلك المراسيم كيفية جلب الثلج إلى مصر في موعده، وفرضت لهم الدولة مكافأة لقاء جلب الثلج "…وللمجهزين به من الخلع والإنعام رسوم مستقرة وعوائد مستمرة، وقد نبه على ذلك كله لموضع الفائدة فيه… "، كما كانوا يحصلون على مزايا العودة إلى الشام على خيل البريد وكان "…الواصلون بها على المراكب يعودون على البريد في البر… "، وهذا يُعد امتيازاً خاصاً لهم بالعودة إلى مواطنهم على خيول البريد.

يبدو من فرض الدولة رسوماً تُحصل سنوياً من الثلاجين أنه قد تم تنظيم تلك العملية وبخاصة في دمشق و أن أغلب البلاد الشامية كانت تدفع تلك الضريبة أو الرسوم طالما يتوافر لباعتها من لثلوج التي يبيعونها لسكان مدنهم.

لا ريب في أن تلك الرسوم كانت تُفرض إما على باعة الثلج وإما على من يستخدمون الثلج من باعة الفقاع، وقد تفاوتت أسعار الثلج في بلاد الشام بحسب توفره أو شحه، فكان يُباع الرطل في مواسم الشح بدرهم وثلث "…وفيها قلت المياه جداً بدمشق، وغلا سعر الثلج بالبلد جداً إلى أن أبيع الرطل منه بدرهم وثلث. "، وهذا يعني أن سعر الرطل كان أرخص من ذلك في موسم توافره سواء بدرهم أول أقل، وكان العامة يقبلون على شرائه، ولكن كان يُسيء بعض الباعة استغلال حاجة الناس له فيرفعون سعر الرطل بأثمان مبالغ فيها، أو يستغلون حاجة الناس إليه ويتفننون في لتحايل عليهم وبيعهم الثلج حتى وإن كان مصدر مياهه غير نقي من مياه البرك وما شابهها، وذلك على غرار التحايل الذي يحدث في أصناف أخرى من السلع.

يبدو دور الدولة واضحاً مرة أخرى بإصدارها مراسيم من ديوان الإنشاء إلى نواب دمشق والثلاجين لحثهم على جلب الثلج إلى مصر في موعده لاستخدامه في تبريد المياه أما في بلاد الشام خلال شهور الصيف فقد كان دلالة على الرفاهية وأبهة الملك وبطش الحكام، وفي هذا أعلنها العُمري صريحة بأنها واحدة من خصائص الملوك الذين كانوا يُبالغون في الرفاهية والحرص على متلاك الأشياء العزيزة التي لا تتوفر لغيرهم أو لتعذيب المسجونين والمسحوقين به فلم تقو أجسادهم المتجمدة أن تناضل للبقاء ! واليوم مع العاصفة القطبية الاستثنائية التي ضربت بلاد الشام مؤخرا ، وهجمت بقسوة على اللاجئين السوريين المشردين والمسحوقين في لبنان وفلسطين والأردن وسوريا!هل يستوي المتنعم بالدفء والأمان، المبتهج بندف الثلج من خلف زجاج النوافذ، المكتوي بلظى الصقيع والتشرد حد الموت.عمل رغم تخصصه الدقيق إلا أنه يضمن المتعة حتى لغير المتخصصين .